الآن يتهلل

بقلم: د. راقية جلال الدويك

الأيـام التـي تشـبه بعضهـا ليسـت لعنـةً كـما يظـن البعـض، بـل إن تعاقـب الأيـام وانفلاتهـا مـن عِقـال الثبـات النسـبي لأحداثهـا هـو مـا يخيـف بحـق.

كانـت أيامـه متشـابهة رتيبـة المثـال، تتكـرر في صباحاتهـا الأحـداثُ كل يـوم، وتكـرر مسـاءاتها مـا يكـون في كل مسـاء. كان ينظـر لليـوم تلـو اليـوم يسـأله التبـدل والتغير، إذ كان لا يـرى مـن رتابـة حالـه إلا المـوات المُتجلِّي في تكـرار الأشـياء ذاتهـا وذات الأحـداث. ولمـا كان للأيـام منهجُهـا المصقـول في المسـير، ولمـا كان للأقـدار كتابُهـا المُـبرم، فقـد قوبـلَ سـؤاله لفـترة غـير قصـيرة مـن الزمـان بمـا ظنـه رفضًـا، ومـا فسـره هـوانَ حـال.

كان مـن جِبِلَّتِـه البشريـة أن قـاوم التكـرار والرتابـة، وسـعى في أرجـاء كونـه الصغـير يضرب الأركان ويطـرق الأبـواب، هـذه الأركان كانـت رافضـة دومـا الـضرب عليهـا، كـما ولم تنصفـه الأبـواب يومًـا فتنفتـح. لكنـه لم يَـعِ أن ذلـك ليـس لعيـب في خطوتـه ولا سـعيه، وإنمـا لأنـه الوقـت بعـد لم يحِـنْ؛ ذلـك أن للأيـام كتابًـا تسـير وفـق منهجـه وتتجـلَّى في مواعيـد تجليهـا المكتوبـة فيـه.

لكنـه ظـل عـلى كل حـال يسـعى ويـضرب الطرقـات، ثـم يـؤوب خذلانًـا بعـد كل مـرة، فيستشـعر شـيئًا مـن الافتقـاد لرتابـة حالـه الـذي طالمـا رفضـه وجافـاه. كان ذلـك ديدنـه مـع الدنيـا، يـروح ويرجـع.. يحـاول ويفشـل.. فيعـود، ويهـدأ، فيمَـلّ، فيعـود يحـاول. وقـد كـررت لـه الأيـام ردَّهـا الواحـد، وكـرر هـو معهـا فعلـه الأوحـد.

ثـم بعـد حـين .. بعـد انقضـاء لمعـة التجربـة، بعـد التثبُّـت مـن ضبابيـة المحاولـة في غـير موضعهـا، كان أن سـلَّم بالرتابـة وتكـرار الحـال، فركـن إلى منزلـه البسـيط بقريتـه الصغـيرة، يـربي فراشـاته، ويناكـف ذباباتـه، ويقـاوم الخيـال. نظـر فيـما حولـه فوجـده ليـس بهـذا القـدر العظيـم مـن السـوء الـذي ظنـه عليـه، ونظـر لمـن حولـه فوجـد فيهـم أحبابـه المخلصـين، فـإذا بـه للمـرة الأولى يقنـع بالسـكون؛ سـكن.. وسـكنت مـن حولـه الدنيـا وكأنهـا تؤكـد لـه مـا ارتـآه، وهـو قـد ظـن ذلـك وصدقـه، وصـدق عليـه بالهـدوء التـام.

ثـم.. حـان للأيـام أن تأخـذ خطوتهـا التاليـة، التـي ظـن هـو مـن طـول أمـد مـا سـبقها أنهـا لـن تـأتي، أدارت الدنيـا وجههـا الرتيـب الهـادئ، فـإذا بـكل مـا حولـه يهتـز، وإذا بمـن حولـه يختفـون. هـذا أخـوه يسـافر لا يعلـم لـه موعـد عـودة، وهـذه أختـه تهاجـر مـع عائلـة جديـدة ورجـل يملكهـا وتملكـه.. هـذه أمـه تغـادر فجـأة!! أمـه.. السـاكنة في مقعدهـا الأثـير، صانعـة الحلـوى والخبـز والحكايـات، تغـادر فجـأة دون نذيـر، فتحُـطُّ في نفسـه جـذوةً مـن نـار ليسـت شـديدة الاشـتعال بقـدر مـا هـي عميقـة الألم، ظلـت هـذه الشـعلة عـلى حالهـا في صـدره حتـى اعتادهـا، بـل وكان يفتقـد حرَّهـا إن أَلْهَتْـهُ عنهـا يومًـا الأحـداث.

لم يعـد معـه مـن الأحبـاب إلا أبـوه، أبـوه!! نعـم هـذا الشـديد القـاسي.. الحبيـب الغـالي.. كـم كانـت حواراتهـما دومًـا شـائكة، ولقاءاتهـما دومًـا عسـيرة، كان يحبـه كثـيرًا كثـيرًا، لكـن أبـاه كان مـن ذلـك الجيـل الـذي يـرى في إظهـار المـودة ضعفًـا، وفي التلفُّـظ بالمحبـة ترفًـا. فـكان يصمـت كلـما قـال لـه الفتـى «أحبـك يـا أبي»، فـكان الفتـى يغُـصُّ بالمحبـة مـرة تلـو مـرة، يبلعهـا فـلا ينطقهـا، وتؤلمـه ولا تجرحـه.

هـذا الأب هـو اليـوم كل مـن بقـي لـه، وهـو اليـوم حاجتـه الماسـة؛ طغـت محبتـه لأبيـه عـلى خوفـه مـن صـده، لمَّـا رأى وجـه الأب يضمُـر بالمـرض وقلبـه توهنـه الآلام، لكنـه هـذه المـرة كان يحبـه بالفعـل فقـط؛ إذ مـا عـاد يسـتطيع قـول: «أحبـك يـا أبي»!! كان الأب يـدري ويقـدِّر؛ فهـو عـلى ضمـور وجهـه مـازال عقلـه مزدهـرًا، وعـلى آلام قلبـه مازالـت روحـه عفيـة. ظـل الولـد يخـدم أبـاه، والأب يتلقـى المحبـة، الابـن يخـدم والأب يَعِـي، الابـن يخـدم والأب يمـتَنُّ، الابـن يخـدم والأب يدعـو صامتًـا لابنـه بالسـعادة والعافيـة.

ظلـت الحـال عـلى ذلـك أعوامًـا وبضعـة أشـهر، حتـى اعتـاد الولـد الخدمـة فلـم يعـد يـرى فيهـا إلا روتينـه الرتيـب، لكنـه روتـين -رغـم عذابـه- كان بالنسـبة إليـه أقـل شـقاء مـن الوحـدة المطلقـة.. حتـى أتى يـوم، والولـد عـلى حالـه؛ يخـدم أبـاه، يمشـط شـعره وينظـف ثوبـه ويمسِّـد جبهتـه بيديـه، إذ بـالأب يسـحب يـد ابنـه إلى فمـه، فيقبلهـا، وإذا بالفتـى يجفُـل ويُدهـش وتُعيقـه المفاجـأة عـن السـؤال أو الجـواب.

تـرك يـده يقبلهـا فـم أبيـه، لم يَقْـوَ إلا عـلى نظـرة خجـلى ملؤهـا الدهشـة لعينـي الأب اللتـين مـا زالتـا تحملان لمعـة زمـن الفتـوة القديـم، ثـم إذ بلسـانه ينطـق بصعوبـة بالغـة «مـا هـذا يـا أبي؟ مـاذا تفعـل؟» فـإذا بـالأب يقـول لـه: «أُقبّـل يديـك، هـذا عرفـان بـبرك العظيـم بي، واعـتراف إجـمالي عـن سـنوات طـوال كنـت فيهـا أود أن أقـول لـك (أحبـك يـا بنـي) لكننـي لم أسـتطع»!

سـاعتها، هـدأت في نفـس الابـن كل النـيران الصغـيرة عميقـة الألم، ونبتـت مكانهـا حدائـق مـن بهجـة واطمئنـان.. لم يحتَـج الابـن إلى مزيـد مـن الأسـئلة، ليـس بحاجـة ليقـول: «أحقـا تحبنـي؟ لمـاذا لم تقـل لي سـابقًا؟ أأنـت مـن قديـم العمـر بيننـا تحبنـي؟» لم يكـن لأي سـؤال موقـع مـن منطِـقٍ، وعـلى ذلـك فقـد وقـر قلبـه واسـتقرت جوارحـه.

لم تَطُـلِ الأيـام بالابـن مـع الأب كثـيرًا بعدهـا، إذ واجهتـه الوحـدة الكـبرى حـين لبَّـى الأخـير نـداء الرحيـل الجـبري، فنظـر الولـد يمنـة ويـسرة، فـإذا بالكـون يصفُـر صمتًـا، وإذا بمـكان الأب الـذي كانـت تملـؤه العقاقـير ووسـائل الشـفاء فـارغ نظيـف.. وإذا بقلبـه خـاوٍ ضعيـف!!

كانـت الرتابـة حينهـا صديقًـا وفيًّـا لم يرفضـه، إذ كان نـورٌ مَـا يتسـلل إلى قلبـه يومًـا بعـد يـوم ليملأ فـراغ روحـه المعذبـة بالوحـدة.. في بـادئ الأمـر لم يَـعِ مـن أيـن تأتيـه هـذه الطمأنينـة، وكيـف لم تعـد روحـه جزعـة ولم يعـد قلبـه يحـترق، لكنـه لمـا أوقـف البحـث عـن التفاسـير، وأطلـق في عنـان النـور الطلـق روحـه كاملـة، إذا بـه يبتهـل قائـلاً: «لمـا روتنـي المحبـة، لمـا اسـتقام الـوداد، فقـد رأيـت اللـه.. إني رأيـت اللـه.. إني رأيـت اللـه».